لكى تكون إنسانا مهذبا

بقلم صريح

لا تحشر نفسك فى وسط لست منه ، فان أهل هذا الوسط يتأففون من وجودك بينهم و إن كانوا لا يبدون لك هذا التأفف ، وعلية القوم وأصحاب الشخصيات الكبيرة قد هجروا القهاوى إلى الأندية فرارا من أمثالك الذين يتهزون فرصة وجود شخص يعرفونه فى مجلس ، فيقبلون عليه و يسلمون و يجلسون و يشتركون فى الحديث كما لو كانوا أصدقاء أو زملاء للحاضرين .

هذا تطفل ممقوت ، وزج بالنفس فى غير مكانها ، و إرهاق للناس الذين يجتمعون — وهم من وسط واحد — ليتمازحوا وليتسامروا وليتحدثوا فى غير تكلف ولا تحرج . فإذا رميت بنفسك فى وسطهم أكرهتهم على التحفظ فى السمر والمزاح أو حملتهم على تغيير الحديث الذى كانوا يتحدثون فيه لكى لا تطلع على سرهم أو لكى لا تنقل عنهم ما لا يحبون أن ينقل، وهكذا يظلون فى ضيق وحرج حتى ينكشف عنهم ظلك الثقيل .

ولا يكفى أن تدفع ثمن مشروبك أو ما كولك لتقول إنك لا تكلف الناس شيئا وتظن انك بذلك تصبح خفيفا عليهم ، فليست المسألة مسألة قروش ، ولكنك تكر عليهم استئناسهم ببعضهم وتضيق من حريتهم فى الكلام حتى يهم الواحد منهم بأن يسألك : " حضرتك عايز حاجة ؟ " ولكن الحياء يمنعه .

كن لطيفا ، و إذا كان لديك ما تقوله لشخص تعرفه فى جمعية أصدقاء فاطلبه وجالسه بمعزل عن الاخرين ولا تطل عليه الحديث وانصرف ، و إلا فانت الثقيل يجلس ممقوتا ويشيع ملعونا .

* * *

لا تتحدث فى المجلس عن غرامياتك ، فليس أدل على سوء الخلق وضعة النفس وانحطاط التربية من أن تفضح امرأة عرفتها وائتمنتك على شرفها ، وان هذه الجريمة لترداد بشاعة وشناعة إذا كان لهذه المرأة زوج أو أخ أو ولد .

وبعد ، فما للناس ولحوادثك الغرامية وتواريخ غزواتك وأما كن فتوحاتك وأسماء رفيقاتك ؟ إنهم لا يعنيهم من ذلك شيء ، وإنما يستمعون اليك وهم يتثاءبون ولا يريد أحدهم أن يجرحك بأن يقول لك : " وأنا مالى " .

وحديثك هذا ثقيل على نفوسهم ، لأنك تحاول أن تقنعهم فيه بأنك الرجل الجميل الظريف الذى تتهاوى عليه النساء ولا تقاوم حسنه الفتيات ، ولأنك تريدهم على أن يصدقوك فى " فتوحاتك " وكلهم يعتقد أنك مختلق أو مبالغ ، فاذا كنت صادقا فإنك عديم المروءة قليل الأدب ، وإذا كنت كاذبا فأنت تضيف إلى ذلك سماجة القحة والزهو الذى لا يطاق.

واعلم أن الانجليز فى مجتمعاتهم لا يترددون فى أن يقذفوا بك على سلم النادى أو أفريز القهوة إذا سمعوا منك مثل هذا الكلام .

* * *

كن نظيفا ، وكن حسن الهندام ، وكن أنيقا إذا شئت ، ولكن لا تكن مختثا فى قيافتك فذلك عيب يفقدك مظهر الرجولة ، ولا أفهم لماذا تغضب إذا قال لك أحد الناس إنك امرأة ، مع أنك تحاول أن تتشبه بالنساء .

ولا تحسب أنك تستهوى قلوب الفتيات بالحاكتة اللاصقة على بدنك وبالشعر الملمع ، وبالأظافر الوردية البراقة ، وبالعطر الفائح منك ، وبالكرفتة التى يضاهى لونها لون الجورب والمنديل وبالجواهر التى تزين رباط رقبتك وأصابعك ، فذلك كله إمعان فى التخنث لا يتبارى فيه غير النساء ، والمرأة تحب فى الرجل رجولته قبل كل شيء ، وهى تحتقرك إذا أحست أنك تنافسها فى الزينة والتبرج وهما أخص خصائصها وأظهر صفاتها .

فإن كنت وسيما أو جميلا فاكتف بجمالك ووسامتك وأبرزهما بالظهور فى مظهر الرجل الكامل ، أما إن كنت دميما فليست الزينة هى التى تجملك ، وإلا فما رأيك فى الجارية السوداء التى تصبغ وجهها بالبودرة وشفتيها بالأحمر ؟ إن الناس يسخرون منك كما تسخر أنت من هذه الجارية ويضحكون منكما على حد سواء .

* * *

حافظ على كرامتك بين الناس ولكن لا تكثر من الكلام فى الكرامة ، فانه لا يكثر من الكلام فيها إلا الصعاليك. واحرص على أن تكون محترما من مجالسيك ولكن لا تبالغ فى ذلك ولا تجعل منه سببا للمشاجرات . ولا تحاول أن تجد فى كل اشارة أو كلمة معنى مهينا أو غرضا جارحا ، بل افترض فيها حسن نية المتكلم واحملها على خير الوجوه وتسامح أو فعاتب

بلطف ورفق ، و إلا فانك تكون صعب المعاشرة غير مأمون المجالسة ، يتجنبك الناس كما يتجنبون المواد المفرقعة أو القابلة للالتهاب . ولعل سكوتا أو إطراقا أو اغضاء أو ابتسامة افعل فى ردع المجترئ عليك من مشاجرة أو ملاكمة .

واملك نفسك وأعصابك كثيرا حتى لا تعكر صفو المجلس الذى يضمك ، فإخوانك وأصدقاؤك قد جاءوا ليتحدثوا وليتسامروا لا ليشهدوا مصارعات ولا ليحضروا مضاربات ولا ليفضوا منازعات . وليس مفروضا على الجالسين فى النادى أو القهوة أن يقدروا ظروفك ويزنوا أعذارك ويحققوا فى ما قلت وفى ما قيل لك ، وانما هم سيحكمون عليك وعلى صاحبك الذى تخاصمه حكما مرتجلا سريعا وهو أنكما مجنونان أو متهوران لا يستحب المكان الذى تكونان فيه .

* * *

لا تكن "نطعا" وتضع فى محفظتك ورقة بعشرة جنيهات أو أكثر تخرجها فى كل مناسبة لتشعر الناس أنك غنى. فالناس — وهم لا يستفيدون من مالك ولا ينتفعون بغناك — يستوى لديهم إن كنت ذا مال أو رقيق الحال .

وأنت تخرج هذه الورقة لكسارى الترام لا ليأخذ منها ثمن التذكرة ، لأن الكسارى ليس صرافا ولا صاحب بنك ، و إنما تخرجها لتراها السيدة الجالسة أمامك ، وتظن أنك بذلك تستهويها اليك مع أنها تضحك منك فى سرها ، لأنها تعلم أن الغنى الذى تعود حمل هذه الأوراق لا يزهى بها ولا يختال .

وأنت تخرجها لخادم القهوة بين جمع من أصحابك لا ليأخذ منها ثمن الفنجان الذى شربته ، بل ليراها هو وليراها أصحابك المجتمعون ، ظنا منك أن ذلك يزيد فى احترامهم لك و إكبارهم أمرك ، مع أنهم يعلمون من حقيقتك ما تعلم ومالا تظن أنهم يعلمون .

وبعد فالله يعلم أن هذه الورقة واحدة لا أخت لها تعرضها طول اليوم على معارفك ليصرفوها لك ، فاذا صرفها أحدهم عدت بقمدتها ثم عدت الى عرضها وهكذا دواليك .

* * *

لا تثقل على الناس بذكر أثمان ملابسك الغالية. فأنت تلبس لنفسك لا للناس ، ولرفاهيتك لا لرفاهية الناس. والناس لا يهمهم ان كنت اشتريت قميصك من عند "بوفان" فى باريس بثلاثة جنيهات أو من عند الأسطى محمد غنيم فى حارة السقايين بعشرة قروش . واعلم أن فى ميدان الفشر متسعا للجميع ، وأن الذين يزعمون أنهم يلبسون أربطة الرقبة من عند "دافيد" والأحذية من عند "جريكو" بباريس كثيرون .

والمسألة لا تخرج عن إحدى حالتين : إما أن تكون رب أسرة تسرف على نفسك وتقتر على أولادك ، وهذه رذيلة لا تمدح عليها . وإما أن تكون غير مسئول عن غيرك ولا مكلف بسواك فأنت تصرف ماهيتك أو إيرادك على شخصك فقط . وليس فى هـــذا ما يعجب له النـاس .

ومهما يكن من الأمر فاذا ابتلاك الله بأحد أولئك الفشارين فلا تكذبه بعدم تصديقك ما يقول ، فإن ذلك يستتبع أيمـانا يحلفها ليؤكد صدقه فتحتدم المناقشة بينكما بلا مبرر . ولكن لا تشجعه بتظاهرك بتصديقه ، لأن ذلك يحمـله على المضى فى سخافاته وادعاءاته . وخير ما تفعل هو ألا تهتم بحديثه وأن تحاول الخوض فى حديث غيره حتى يخجل من نفسه فيرحمك من فشره .

* * *

أنت تلبس بذلتك الجديدة وتتزين وتتعطر وتلمع حذاءك وتقف أمام باب السينما أو أحد المحلات التجارية كالتمثال لولا أن عينيك تتحركان فى أعلى وجهك يمنة ويسرة وسلسلتك الذهبية تلتف حول سبابتك طردا وعكسا . فماذا تبتغى من ذلك ؟

التفرج برؤية الداخلات والخارجات . أليس كذلك ؟ . ولكن هؤلاء الداخلات والخارجات يمررن أو يمر مثلهن وأحسن منهن فى الشوارع وتستطيع أن تتفرج برؤيتهن وأن تمتع نظرك بمشاهدتهن وأنت جالس على أفريز القهوة وهن رائحات غاديات . ولا أقـول إنك بذلك تفعل فعلا محمودا أو معقولا ولكنك على الأقل تحفظ كرامتك ولا تجعل الناس يضحكون من وقفتك .

أما إذا كان غرضك من وقفتك هـــذه اصطياد واحدة منهن فوسيلتك أرذل الوسائل وأعقمها وأسمجها فى وقت واحد. لأنك لن تجد سيدة أو فتاة مهما كانت متسامحة متساهلة ترضى أن تلتفت الى حركاتك أو أن تستمع الى اقتراحاتك فى مثل هذا الموقف وفى وسط هذا الزحام . واذا كنت تظن أن إحدى الساقطات منهن قد تقبل عليك وترى فيك غنيمة خير لك أن تعدل عن هذا الظن ، فالمعلوم والمشهور والمجمع عليه أنه لا يقف هذه الوقفة إلا الشبان المفلسون والرقعاء المتسكعون . والساقطات طالبات رزق والرزق لا يوجد عند هؤلاء . إذن فأنت لن تكسب مما تفعل سوى أن يقال إنك سخيف ، فهل ترضى أن يقال إنك سخيف ؟

صريح